الحسب والنسب

لجناب جرجس افندي خوري

يراد بالحسب ما ينشئهُ الرجل لنفسهِ من المآثر و بالنسب ما يرثهُ عن آبائهِ من الشرف فاطلاقهما معًا على مَنْ ليس لهُ شيء يُؤثَر بمثابة اطلاق الكرم على البخيل والشجاعة على الجبان . فلذا يُشترَط في قولنا زيد "حسيب نسيب" ان يكون مقتنيًا اثر آبائهِ وسالكًا بمقتضى الشرف الذي ورثهُ عنهم

ولا مراء ان المعتبر في هذا المقام انما هو الحسب لانهُ قاعدة المجد ودعامتهُ . فالعائلة التي تعدُّها الآن ذات حسب ونسب لم تكن كذلك الّا بعد ان اسّست لنفسها دعائم الحسب ومن ثمَّ أتيح لابنائها ان يتقلّدوا المفاخر خلفًا عن سلفٍ حتّى اناخ النسب عندها مطاياهُ . فالنسب حالة تتولّد من الحسب تقوم بقيامهِ وتضمحلُّ غالبًا باضمحلالهِ

اذا تأمّلنا في حالة زيدٍ من حيثية اعمالهِ الشخصيَّة العائد عليهِ اما بالشرف واما بالذل رأيناهُ على حالةٍ من اثنتين ونعبّر عن الاولى الدّالّة على الشرف بالحاليّة وعن الثانية الدّالة على الذل بالعاطلة . ثمَّ اذا زدنا على ذلك بان نظرنا ايضًا في حالتهِ من حيثية اعمال آبائهِ وأبنائهِ كذلك على حالةٍ من اثنتين امّا حالية واما عاطلة . ومعلوم ان هاته الحالة متّصلة اليهِ بالارث بحيث لا يجد لهُ منها مناصًا . فلذا يتمشّى اعتبارهُ بين قومهِ على مقتضى الحالتين اي الحالة الناشئة عنهُ والاخرى التي اوصلها اليهِ الارث

ومعلوم ان هاتين الحالتين تتفقان من حيث التعبير المذكور آنفًا في شخص وتختلفان في آخر بحيث ينشأ عن ذلك اربع حالات كبرى . فان اتفقتا كانتا امّا حاليتين فيكون الانسان حسيبًا نسيبًا واما عاطلتين فيكون لا حسيبًا ولا نسيبًا وان اختلفتا فكانت احداها حالية والاخرى عاطلة كان الانسان حسيبًا فقط او نسيبًا فقط . وهناك حالات اخرى اضافية لا نطيل الكلام بذكرها بل نتقدم الى وصف الحالات الاربع المتقدمة . ونبتدئ بذكر كل حالة من الحالات الاربع على حدةٍ ناظرين في ترتيب مواضعها

الحالة الاولى — هي حالة الحسب والنسب الخطيرة الشان الرفيعة المكان المعتبرة من قديم الزمان . ولطالما مدحها المادحون وتنافس فيها المتنافسون حتّى عدّها شيخ فلاسفة القدماء من الكمالات الدنيويّة التي جعلها قسمًا من اقسام السعادة . ولا جرم انها الحالة المتناهية في عظم القدر ورفعة المقام ومما يعزّز مكانها تعذّر الحصول عليها لانها منحصرة في

عيال مخصوصة لا مطمع فيها لعيال أخرى الّا انا حرص رجالها على المكارم وشهدت لهم السنون باستمرار الفضائل . اما اصحابها فهم على جانب عظيم من الشهامة وعزّة النفس ولهم الاعمال العظيمة والمآثر الجليلة والايادي البيضاء وعنهم يروى الكرم والسخاء وهم ذوو الآثال المتوارثون المجد كابرًا عن كابر . وناهيك بهم رجالاً ادباء مفطورون على سماحة الاخلاق ولين العريكة والخصال الحميدة . ولا ننتقل منها الى ذكر الحالة الثانية ما لم نذكر شيئًا عمّا يتعلّق بالحالات المضافة اليها

فالحالات المضافة الى هذه الحالة قائمة على حسب مشوبٍ باللؤم ويُعرَف بالحسب المكتسب . وعلى نسب قريب الاباء من المجد الاكبر او قليلهم في السؤدد والصلاح . ويُعرَف الاول بالنسب الأقعد والثاني بالنسب المِكْسَل او على غيرها ممّا هو بعيد عن النسب الذي كنا بصدده

الحالة الثانية — هي الحالة العظيمة الشان التي يسعى اليها كلُّ مَن هذّبته الحقائق وتحلّى بهِ العصر . اما ذووها فهم من عظماء الرجال واكابرهم الذين طار صيتهم في الآفاق . فما من مأثرةٍ الّا ولهم فيها اليد الطولى وما من عملٍ عظيم الّا وهم اربابهُ . فلا يشينهم كونهم لم يرثوا المجد عن آبائهم لان شجرة اعمالهم العظيمة القائمة في وسط حديقة مفاخرهم الغرّاء تغنيهم عن شجرة النسب . ويتألفون من ثلاث طبقات . طبقة البسلاء . وطبقة العلماء . وطبقة الاغنياء . ولكل منها شأن مذكور في مراتب المجد السامية . اما ذوو الطبقة الاولى فهم رجال الحرب الذين يرتقون ببسالتهم الغريبة واقدامهم العجيب الى اعلى ذرى المجد ولعلهم هم الذين شعروا بادىء بدء بلذة العزّ وادركوا كنههُ قبل ان يُعرَف لهُ معنًى بين الناس فهيّأوهُ واسّسوا دعائمهُ في تلك الازمنة المتوغّلة في القدم ايام كان الانسان بسيطًا ساذجا . ولا عجب فان هذه الطبقة لأقدم الطبقات التي نجم عنها الحسب والنسب . واما اصحاب الطبقة الثانية فهم رجال العلم الذين يخدمهم علمهم بمقدار خدمتهم للانسانية . ولا حاجة الى وصف ما لاصحاب هذه الطبقة من المنزلة المتناهية في الرفعة لان شهرتهم تقضي بالغنى عنهُ . واما رجال الطبقة الثالثة فهم الذين يبذلون البيضاء والصفراء في سبيل المفاخر ويتبوّأون عرش المجد رغمًا عن كل مكابر . ولا بدعَ فانهم ذوو الاخلاق الكريمة والمناقب العالية والايادي البيضاء والاكف الندية الواسعو العطاء الحريصون على صنع الجميل . ولا يفرغ صفائحهم فارغ الّا ويتثني خجلاً ولا يبارحهم في مضمار الفخر مبارٍ الّا ويرجع خاسرًا . يجلسون في صدر المحافل والمجالس ويندفعون في الاعمال الخيريّة والمنافع العمومية اندفاع السيل

الفائض . لا تثنيهم كثرة النفقة عن مقاصدهم العالية لان شأنهم الكمال ودأبهم الشرف . ومعلوم ان رجال هذه الطبقة قليلون جدًّا . لانهُ ليس كل غني يسمح ببذل الدينار الذي هو بحسب اعتقاد الاكثرين النفس والنفيس معًا

اما الحالات المضافة الى هذه الحالة فكثيرة ولكنها على كثرتها واختلاف درجاتها تفضل من حيثية السعي والعمل على غيرها مما يضاف الى الحالات الاخرى اذ من خصائص اصحابها الاهتمام بتحصيل ما يمكنهم تحصيلهُ من المجد لانهم لما كانوا غير حاصلين عليهِ بالارث كان من شأنهم السعي وراءهُ . وما من ساعٍ لابتناء المناقب واحراز الذكر الجميل الاَّ ويمكنهُ مهما كانت الحال ان يحصل على ما يؤهلهُ للجلوس في مجالس الفخر ولو في آخر المصاف

الحالة الثالثة — حالة النسب الموروث عن الآباء القائمة على ما ابقاهُ الدهر مما هنالك من ابنية المفاخر المتهدمة . وهي كريمة واصحابها ممن ادبهم الغنى واذلهم الفقر ولذلك يكونون على جانبٍ من حسن المعاشرة واللطف . يدلُّ على سؤددهم القديم ما يبدو منهم من المروءة والشهامة . غير ان اقتصارهم على تذكار الفخر بهاتيك الاطلال والرسوم يغرُّ بهم ماديًّا وادبيًّا

ويضاف الى هذه الحالة حالات كثيرة مختلفة الدرجات وكلها قائمة على دعوى النسب على حين ليس لها من النسب ما يستحق الذكر او يستدعي الالتفات اما اصحابها فهم على غاية من العزوة والتمدُّح والعُجب حتَّى انهُ ليوجد بينهم من كلِّ عُطُلٍ مَن اخذت منهُ الخيلاء كلَّ مأخذ . ومن الغريب انهم على ما هم عليهِ من ضعف النسب لا يعتبرون المجد مجدًا الاَّ اذا كان موروثًا وربما اعتقدوا ان هذا الموروث لا يغرُّهُ شيءٌ من الشوائب ولذا ساغ لهم ان يتقاعدوا عن السعي وراء الشرف وان يعدوا انفسهم شرفاء كيفما كانت الحال . وقد فاتهم ان اصل المرء ما حصل وان الضابط المعوَّل عليهِ في هذا المقام هو ان الانسان ابن الحال

الحالة الرابعة — هي حالة العدم اي التي لا حسب فيها ولا نسب واصحابها يُعدُّون من سقط المتاع وهم الحثالة الذين يضيقون الاسواق ويكدرون الموارد . ولذلك لا يُظنُّ بوجود حالات تضاف اليها لاسيما وان اصحابها انفسهم يتبرَّأون منها على الغالب

فتذكَّر ايها الشرقي مجد الآباء والجدود ولكن لا تنسَ ان اولئك الجدود انما حصَّلوهُ بالسعي والعمل ايام أسَّست ممالك الشرق على مبادىء العدل والحريَّة وبنى مؤسسوها علاليَّ وقصورًا على أسس المفاخر حتَّى اضحوا عمادًا للآداب ومنارًا للعلم وعنوانًا للفضل بينما

كان غيرهم ممن نستضيء الآن بنبراس آدابهم ومعارفهم في حالة الهمجيَّة . وانت عالم ان هؤلاء ايضًا لم يرتقوا اخيرًا الاَّ بعد ان هبُّوا من غفلة الجهل وتجافوا عن مضاجع الخمول مقتدين باولئك الفضلاء الذين لم يبقَ لنا القعود عن احتذاء مثالهم بنوى رؤية آثارهم والاستدلال بها عليهم على حد قول الشاعر

ان آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

الاَّ ان الاقتصار على الفخر بهاتيك الآثار مضرٌّ لانهُ يولِّد حُبَّ الفخفخة التي تعبث بالصفات الادبية وتفضي بصاحبها الى الفقر . وهذا شأن اكثرنا مذ فقدنا بضاعة الجدود واقتصرنا على تذكار الفخر حتَّى صار الادعاء فينا شيئًا فطريًّا . وخلاصة القول ان الاقتصار على تذكار الفخار من شرّ الامور وان الفخر الحقيقي هو الذي ينشأ عن السعي والعمل

تسهيل الطباعة

لو وضعت مخترعات الانسان في جدول ورُتِّبت فيهِ بحسب نفعها ولزومها للعمران لكانت الكتابة في صدر الجدول حتَّى لقد ظنَّ البعض انها إلهامٌ الهي لا اختراعٌ انساني . والحقيقة ان الناس توصَّلوا اليها تدريجًا شأنهم في جميع المخترعات العظيمة وتقدَّموا فيها تقدمًا بطيئًا وكان يخلِّل تقدمهم فترات يقنعون فيها او يتقهقرون كما هو شأنهم في كل الاعمال الى ان استنبطوا الطباعة فكان من نتائجها ما نشاهدهُ في عصرنا من رخص الكتب والجرائد وكثرة انتشارها . فالمقطم الذي ننشرهُ يوميًّا لا يستطيع اثنان كتابة نسخة كاملة منهُ في يومها فما قولك في الفين او ثلاثة آلاف نسخة تطبع منهُ في بضع ساعات من غير ان يقع فيها خطأ او تحريف بل ما قولك في جريدة مثل جريدة التيمس يُطبَع منها في اليوم سبعون او ثمانون الف نسخة وفي كل نسخة عشرون صفحةً او اكثر من الصفحات الكبيرة الدقيقة الحروف

وقد تقدَّمت الطباعة من حين استنبطها غوتنبرج او كوستر الى الآن وكان اكثر تقدمها محصورًا في اتقان آلات الطباعة نفسها وسبك الحروف وبقي فيها فرع لم يتقدَّم قط وهو جمع الحروف وترتيبها بعضها مع بعض حتَّى تتركَّب منها الكلمات والسطور والفصول . فاذا دخلتَ مطبعةً تجد فيها جامع الحروف قائمًا امام صندوق كبير فيهِ بيوت صغيرة لكل الحروف والارقام فيجمعها حرفًا حرفًا بصبر وتأنٍّ ويضعها في مصف من الحديد او النحاس حتَّى اذا بلغ آخر السطر شدَّهُ بفروق من الرصاص ادخلها بين كلماتهِ وعاد يجمع سطرًا